صولفيج

قصص قصيرة
متتالية

منال يوسف

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر
الإسكندرية، مصر
اسم الكتاب: صولفيج
اسم المؤلف: منال يوسف
قصص قصيرة متتالية
الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ، ٢٠١٨م

© جميع الحقوق محفوظة

٤٤ شارع سوتير، عمارة فودافون، أمام كلية الحقوق
الدور الثالث، الإسكندرية، مصر.
موبايل: ٠١١٤٦٧٩٥١٩٦ هاتف: ٤٨٧٠٢٠٣
levantegsy@gmail.com

رقم الإيداع: ١٧٢٣٠
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٥١-١٢-٨

الغلاف والرسوم الداخلية: صبري الدويب

إهداء

إلى أبنائي

سلمى وأحمد وسيف الدين ..

فرحةٌ من وجعٍ

كلاسيكية

مُتابعة شهرزاد

متابعة سيمفونية، من تأليف: ريمسكي كورساكوف

استنادا إلى كتاب "ألف ليلة وليلة"

واستخدمها: ولهم فوكنر في باليه 1888

كلاسيكية

كلاسيكيٌ جدًا

الجِرَامَافون العتيق في رُكنهِ المقدس، عاد ليجلس إلى مكتبه، رافعًا نظارته، مُغلقًا عينيه، مُسلِّمًا روحَه لـ"افتتاحية عيد الفصح" بامتنانٍ شديدٍ لـ"كورساكوف"، صوتُ الـ"كمان" مُتسلِقًا الـ"هارب"، يتلاحقان؛ إنها شهرزاد؛ هكذا علَّمَها، وأصبَحَتْ تُميز الأصوات؛ حين تسود الآلاتُ النحاسية، تسْتشعِر وجود شهريار، يتهادَى الـ"كلارينت" في جزئِها المُفضل، راقيًا كرفيفِ قلبٍ عاشقٍ، إذا كانت دقاتُ الـ"رِّق"، هَمَسَ: مولاتي، ينخلعُ قلبها طائرًا ويحطُ بصدرهِ، لكِنه مُطبقُ الفمِ، مُغلق العينين، لا يفتحهُما إلّا بعد انتهاء المُتتابعة بوقتٍ طويل!

كلاسيكيّة نوعًا ما

وحدُهَا في المتجر، دقاتٌ سريعةٌ مُتتالِية، ودبيبٌ يُنذر بحياة، لا تمْلُك سوى صوتها، ورأسًا؛ كادَ أن ينخلع راقصًا بعد أن خَذَلَها الجسد، تصرخ مع "بوني تيلر" I need a hero ، الموسيقى تتفجرُ من عينيها، تسِيلُ عاصفةً وإعصارًا.

واقفًا لدى الباب، لا يعْنِيها فارق السنِّ بينهما؛ فهو الأكبر على أيةِ حال، وهي أيضًا ليست صغيرة، تهْمِس: يا مليكي؛ يتدحرجُ قلبه قافزًا؛ ليستقر بين كفَّيْها، لكنها مشغولة بمحاولة إغلاق المُشَغِّل!

يسحبها نحو الفراغ، ويدورُ بها في مرونةٍ تُدْهِشها بالنَّظَر إلى عُمْرِه.. لا تخْشى الدوارَ الآن، ستسْقُط بين ذراعيهِ على أيَّةِ حال

he is all of what I need؛ بشدةٍ، تميلُ عليه، ينحني للخلفِ دونَ أن يُفلِتها، يجتاحُها فتتشبَّث به؛ صعودًا وهبوطًا مثل وَتَرَيْن في آلة واحدة.

كلاسيكيو

متأخرة؛ جاءت، يُغلِقُ المُشَغِّل ويتجهُ إلى مكتبه، تُسَلِّم الإبرةَ للأسطوانةِ، وتُسلِّم روحَها لِسطوةِ شهريار؛ حين يبدأ الـ"فُلُوت" رقصتَه، يتقافزُ حولَهُما قلبانِ، تتعالَى صيحاتهما: مولاتي، يا مليكي، يمتليء المتجر بفتيان وفتيات.. صوتُ الأبواقِ والأجراسِ تُشعِلُ الأجسادَ، يُطَوِّعُون أجسادَهم مع الحركاتِ الأربعِ للسيمفونيةِ في تَحَدٍّ لـ"مايكل فوكين" ممتلئًا بالشغف.

أصبح من المعتادِ وقوفُ المارةِ مندهشين خَلْفَ البابِ الزجاجيّ، وعلى الرصيفِ المقابلِ، يستَلْقي "مسرور" تارِّكًا بجانبهِ سيفًا قد علاهُ الصدأ.

فبراير الأزرق

الدانوب الأزرق

معزوفة وأوبرا من تأليف: يوهان شتراوس/ الابن/ 1866م

على إيقاع الفالس

فبراير الأزرق

اليوم.. جاءت مادلين باكرًا، وضعوا البيانو في المكان الذي أعَدَّه مُسبقًا؛ لم تَجد أفضل منه مكانًا ولا مِن رفيق صِباها، تُهديه آخر ذكرى لأختها الراحلة بعد أن حَطَّمُوا كل شيء في بيتِها، سَلّمَتْهُ كَنْزَها الأخير قبل أن تذهب للمُشاركة في الوقفةِ الاحتجاجيةِ مع زملائِها.

يضمُ مادلين لصدرهِ، وعيناهُ تعتذران للأخرى؛ إذْ تراقبهما من مكانها المعتاد، شدّت مادلين على يدها، فانهار الغضبُ الذي مَلَكَها لأيامٍ سابقةٍ؛ حينما ظلت مادلين تحكي له بصوتٍ خفيضٍ لا يصلُ إليها؛ وقد انشغل بحديثها، حتى بَدَا وكأنّه لا يشعر بوجودها على الإطلاق، الآن عيناها تلاحقان مادلين وهي تتجهُ نحو الباب كشهيدٍ مُحتَمَل.

التَقَتْهُ بعد غيابٍ طويل، تمْسَحُ يدِها على جسدِه الأسود اللامع، مفاتيحه العاج، صفحاتُ ذاكرة، وأبنوسُه الأسود، شاراتُ كبرياء، صورةُ السيدة المُلْصَقة عليه تُشبه مادلين، الآن عَرِفَتْ سر شعورها الغامض تجاهها: "وجهٌ نحيلٌ وبشرةٌ فاتحةٌ وشَعْرٌ بنيٌّ ناعمٌ ولامعٌ وقصيرٌ؛ ومقصوصٌ بحدةٍ عند أطرافه، نظارةٌ طبيةٌ صغيرة ذات إطار بنيّ، ورداءٌ بنيّ - أيضًا - لا يمكن لذاكرتها أن تُخطئه".

- الآنسة أنجيل؛ أخت مادلين الكبرى.

- إنها مُعَلِّمتي!

[شَدَتْنِي إلى حُجرة الموسِيقى بالمدرسة؛ فقد اقتربَ موعدُ الحفل، تجلسُ إلى البيانو، نعْزِف معًا، هي بصوتٍ خفيض، بينما تميلُ برأسِها

مُنصتةً، لم أنجح يومًا في إجادة العزف على البيانو، ولم أستطع استعمال كِلتا يدي في آنٍ، واحدة للإيقاع والأخرى تؤدي أداءً آخر، اخترت "الأكورديون"؛ إذ لا تقوم اليدُ اليسرى غالبًا إلا بضَخ الهواء، اندَهَشَتْ الآنسة أنجيل؛ حينما اكتَشَفَتْ اتقاني الشديد رغم غيابي الطويل عن التدريبات، وابْتَسَمَتْ حين أخبرتها أن المعزوفةَ كلّها تتردد في داخلي؛ حين أضع رأسي على الوسادة كل ليلة].

تدورُ حولَه، الإشاراتُ تسْرِي في عرُوقها، فتترقرق يمينها على المفاتيحِ المُصْفّرةِ، يضبط لها الإيقاع بيُسْراه، أصابعُ فنانٍ زَيّنَتْهَا التجاعيدُ؛ وَدّتْ لو تَضُمُّها إلى صدرها، في كل ثنيةٍ حياة؛ وَدّتْ لو عاشتها معه ورَسَمَا معًا تجاعيدَ الأيامِ، يشاركها بالإيقاعِ، صاعدًا سُلُّمَها، مناديًا في الجوابِ، خافتًا عند القرار.

يمناهُ تلتقي يدها الحرة من خلفِ ظهرها، يرجعان، ينسابُ "الدانوب الأزرق" وئيدًا من صفحاتٍ عَبَأَتْهَا أصابعُ الذاكرةِ بأنغامٍ ثلاثية الإيقاع؛ واحد.. اثنان.. ثلاثة، واحد.. اثنان.. ثلاثة، وفي مكانٍ ما على أرضٍ خضراء، ما يزال أناس يُسَكِّنونَ الألَمَ بخطواتٍ جامحةٍ؛ هل كانَ "شتراوس" يدرك حين أراد أن يصرع هزيمةَ وطنهِ، كم ستكون الشهوةُ مقدسةً حين يحتويها فالسُهُ؟ وأنّه - الآن - ثمة قلبان يصرعان اليأسَ والخيباتِ، وينشدان على دقاتِ خطواتهما موسيقى الحياة؟

هل كانت مصادفةً، أن يتجمد لهما الدانوب في فبراير- شهر ميلادها- فيَسْبَحا معًا فوق جليده؛ لفًّا ودورانًا وانزلاقًا بقدميهما الحافية، في باطنيهما دفء ينشقُ له الثلج، فيهبطان معًا إلى أعماق دافئة، يضربان بأرجلِهما؛ صاعدين على سطحِ مياهٍ ألهَمَهَا النيلُ الأزرقُ، الأزرقُ جدًّا، وشمسٌ مَدَّتْ ساقيها في نهارٍ شتويٍّ كان شديد البرودة.

المركبُ التي انتَشَلَتْهُما مزينةٌ بالأعلامِ، وعلى الشاطىء جموعٌ تهتفُ زاحفة نحو الميدان، تُظَلِلهم سماءٌ زرقاءٌ، زرقاءٌ جدًّا، الهُتاف نشيدٌ يكتُبُه الناس لوطنٍ أرهقته الأحلامُ الذابلةُ ومَزَّقَهُ الفقدُ، نشيدٌ هديرُهُ يدْحَرُ في طريقِه أي سدّ.

يعبُران مع الجموع الثائرة، تغمُرهمَا رعشةٌ، المياهُ تُثقِل ملابسهما، لكنّ روحيهما ملاك سابح، وفي تلك اللحظة تقفُ مادلين على سُلَّمِ النقابةِ بشعرِها الأبيض ورداِئها ذي الياقة الزرقاء، وعلى ناصيةٍ في مدينة بعيدة؛ ثلاثةُ رجال سود يعزفون موسيقى الـ"blues".

بَدَأَتْ الارتعاشةُ تهدأ؛ بعد أن أغلقَا بابَ المتجرِ خلفهما، الماءُ المُتساقط منهما، يصنعُ حولهما بحيرة زرقاء، رأسُها عصفورٌ مطمئنٌ في صدرِه، ويداهُ جناحا طائرٍ يحتضن وليدَه، آن للقلبِ أن يرتوي بقبلةٍ زرقاء؛ واحد .. ا ثـ نـ ا ن.. ثـ لـ ا ثـ ـة.

الحركة الأولى

الناي السحري

أوبرا من فصلين

موسيقا: موتسارت 1791،

وكتب نصها: إيمانويل شيكانيدر

الحركة الأولى

صباحٌ جديدٌ بلا ساق، يكادُ الممرُ أن يكون خاليًا، الحجراتُ مغلقة على عذاباتها، فتاةُ الاستقبالِ مشغولة بمراجعة الحالات على الكمبيوتر، تُطِلُ لوحاتٌ إرشاديةٌ باردةٌ على الكراسي الفارغة، يدٌ صغيرةٌ تجذبني من قميصي مع صرخة تنبيه، عيناها الضيقتانِ المنحرفتانِ تُحَدِثانني، تهُزُ شعرَها الأسود الفاحم المقصوص من أسفلٍ باستدارة؛ هزات متتابعة، تسحبُها أمها من يدها مُبْتَعِدتين دون اعتذار.. لا أحد يعتذر هنا، فالكلّ - بالكادِ -يحتمل مأساته، والوجوهُ ذات الملامح الواحدة اعتذارٌ كافٍ.

بعض القهوةِ ضرُورة صباحية، أُتابعُ عن كثب الطبيبة أمل، جاءت خِصِّيصًا من أجل حالة الطفل وليد، أفسحتُ لها من أجل أن تُجرب طريقتها في المعالجةِ الفيزيائيةِ مع الموسيقى، لكنها - حتّى الآن - لم تصل إلى أي نتيجةٍ مثلما هو الحالُ معي، حتى إنني أُفكِّر جديًا في تحويل الحالة إلى الاستشارة النفسيّة.

في كلّ مرةٍ يَميلُ نحو أمِهِ، تُجاوبه أن أباهُ في الطريقِ، لكنّه لم يأتِ ولا مرةٍ واحدةٍ، وهي لا تزال تحملُ طفلها، ولا تُخْلِف موعد الجلسات، تجلسُ عن قربٍ متكورة، وعيناها مُتعلقتان بساق ابنها حتى تنتهي الجلسة.

كنتُ يتيمًا؛ غياب أبي غُصَّةٌ عمري، لكنّ أمي كانت ولا تزال لي؛ ما أجمل الأمهاتِ! يغْزِلن الأملَ كلّ صباحٍ، ويُرَتِقْن ابتسامتهن التي مَزَّقهَا الليلُ، الرضى على وجُوههِن يمنحُنا الثقةَ والطمأنينة.

لو أني أملُكُ نايًـــا سِحريًّا كـ"تامينـــو"، أنفخُ؛ فيلتف الأطفالُ حولي،

يرقصون، تنفتح كل الحجراتِ، "بابا جيتو" يُحرِّك لهم أجراسَه السحرية الصغيرة؛ فيختفي الألمُ الذي وَشَمَ وجوهَهم، المُصابون بشللِ الأطفال يقفزون في الهواءِ، أصحاب "متلازمة داون" تتسع أعينهم، ويختفي انحرافُها، وتعتدل ألسنتهم، الأفواهُ التي ظلت بكماء، لا تكف عن الكلام، تملأ الدنيا ضجيجًا حتى تنفجرُ الجدران؛ فنُصبح جميعنا في العراءِ تحت سماء باسمة، ينزعُ الأطفال أجهزتهم التعويضية، يُطَوِّحُونها في الهواء، ويَطِيرُون، يتعلق الجميع بأرديتهم، بعيدًا يَسْبَحون، أينما مَرُّوا تَفَتَّحَتْ أزهارُ في الحدائقِ وعلى الشرفاتِ، حتى إنّ بذرةً شَقَّتْ التربةَ بساقٍ خضراء؛ كان قد زَرَعَهَا طفلٌ منذ عام أمام بيتٍ قديم، لا تراهُ الشمسُ، في أرضٍ لا خَيْرَ فيها.

اسْتِطالِت الأمُ فجأة، الطبيبةُ تُشِير إليَّ وفي عينيها لمعةُ انتصارٍ، أَقْتَرِبُ بهدوءٍ من وليد، عيناهُ متعلقتان بالنافذة، بِرَجُلٍ يعبرُ الحديقةَ، في طريقِه إلينا، وكُلَّما اقترب زادت محاولاتُ وليد في الحركة، وعلى الرغم من أنه لا حركة تَمّتْ بالفعلِ، إلا أن الطبيبةَ أَشْفَقَتْ عليه، كان العرقُ والانفعالُ يملؤه، فطَلَبَتْ منهُ أن يتوقف.

لا تُفلت يدها أبدًا من يدِ وليد، الذي حَمَلَهُ أبوه وخرج به بعد انتهاء جلسة اليوم، وكأنه يراها لأولِ مرةٍ؛ على الرغم من أنها كثير ما فَتَحَتْ البابَ في أثناء جلستنا، وأطَلَّت عليه مُحْدِثَة جلبة، لا يلتفتون لخُطُواتِها القصيرةِ، يتأرجحُ شعرُها الفاحمُ بندولًا، وهي تجري في محاولةٍ للِّحاق بخطواتهم الواسعة متعلقة بقبضة يده.

[قالوا لا فائدة، لكنني أتيتُ، ما يزالَ عندي أمل].. أحملُ الطفلَ إلى حجرتي، "لا تقلقي يا سيدتي، سنعْبُر معًا غرفةَ الماءِ والنار، نلزم الصمت أحيانًا، نضعُ الأقفالَ في فمِ الكذّابينَ والمُحْبِطينَ؛ ليظلّوا في ليلٍ أبديٍّ، رُبَّمَا تأتي أرواحُ الصغارِ بنهارٍ يمشي على قدميهِ.

Love story

أغنية شعبية غناها : Andy Williams

فى فيلم يحمل نفس الاسم 1970)

موسيقا : فرانسيس لاى

دويتو

مثل علاقةٍ شتويةٍ بين قُنْفذَيْن؛ تمضي علاقتهما، لن يأتي اليوم، وعليها أن تحاول قتل الوقتِ؛ قبل أن يجهز عليها الانتظار، يموج شعرها الأسود الطويل بعشوائيةٍ؛ مُهتاجًا، تَطْمَئِن من المرآةِ على حالها كلّ يوم.. جميلة ووحيدة أيضًا.

الفتاة العاج تدور بداخل صُندوق الموسيقى على أنغام الموسيقى الإلكترونية التي تُكرر مقطعًا محددًا من لحن "love story" القديم جدًّا، حتى ينتهي المفتاح من دورته كاملة عائدًا إلى وضعه الأول.

من صُندوق الموسيقى إلى هاتفها المحمول؛ إذ تحتفظ بالأغنية الأصلية من الفيلم، إلى الأسطوانة في مُشَغِّلها، وصوت " Andy Williams" غريرًا كالبهجةِ، دافِئًا كشُوكُولا ساخنة في مساءٍ باردٍ جدًّا؛ where do I begin، تدورُ، تدورُ، وتسقُط.

عيناها وشعرها وعناد شفتيها؛ مُستندات اقترابها من جَدّتِها لأبيها؛ صانع الفخار، هكذا وَجَدَتْها شبيهة بها؛ فأهْدتْها صندوقَ الموسيقى الأثير لديها، ضمَّته إلى صدرهِا وقت نُزوحِها من سوريا؛ بعد أن دُمِّرت مدينتها.

كانت الجَدَة قد تَزَوَّجّتْ من مصريّ في مُقْتَبَل حياتها، ولمَّا كانت طموحةً ومتطلعةً - على الرغم من عدم ارتيادها أية مدرسة، وفي سنواتٍ قليلةٍ لم تَعُدْ تعرف نفسها معه - فقد انفصلت عنه بعد أن عاشا معًا في بلدها، وعاد إلى بلده، غير آسفة عليه، تحمدُ ربها؛ أنها ما أنْجَبَتْ منه، ثم تَزَوَّجَتْ من بعده، وأصبح لديها أولاد وأحفاد وذكريات لا تتمسك بها.

تُديرُ المفتاحَ، فتاةُ العاجِ تدورُ، لكن لا صوت للموسيقى، تُعيدُ إدارة المفتاحِ.. مرة، اثنتين، تُلْصِقُ الصُندوق بأُذُنِها.. ولكنها لا تسمع شيئًا.

في مَتْجَر الموسيقى، نَظَرَ إليها الرجل متوجسًا؛ بعد أن أدار المِفتاح أكثرَ من مرةٍ، مُبَادِلاً رفيقته نظرات الدهشة، ولمَّا رأى إصرارَها ودموع عينيها؛ وَعَدَها بمحاولة إصلاحهِ، على أن تأتي في الغَد لاستعادته.

اشترى لها زوجها بعض الملابس؛ معظمها للنوم، لا يهم على أية حال؛ فلم تكن لترتدي سوى البالطو الأسود الذي نَزَحَتْ به من وطنها، مع لهجتها تُعْلِن للناسِ انتماءها؛ أصبحا مألوفَين لهم مثل محال الأطعمة المُنْتَشِرة، والتي تَحْمِل اسم الشام.

أَخَذَهَا جمالُها للمحامي؛ الذي تَكَفَّل بإحضار الزوج المصريّ وكتابة العَقْد، اتَّفقا على استمرار العلاقة الزوجية؛ حتّى إذا تَحَسَّنت أحوال وطنها، فإذا أرادت العودة فلا مَفَرَّ من الانفصال، كان يُمْكِنها أن تعمل بحضانة الأطفال مثل جارتها، لكن المحامي أقنعها بأنّ الزواج أكثر راحة، وستجد من يرعاها.

اليوم طويلٌ.. طويلٌ، وغدًا رُبما لا يأتي زوجُها أيضًا، تقف أمام النيل؛ لا يُشْبِه "العاصي" أبدًا؛ فـ"العاصي" لا يُشْبِه أحدًا، فقط يُشْبِه جَدَتها؛ زاخرٌ بالحكايات، مُسافرٌ طويلاً من "هضبة الهرمل"، مارٌ من تحت سفح "تل النبي مندو"، حائرٌ عند "قَطّينة"، عابرٌ للسدود، مُحَمَّل بحكايا البلادِ البعيدةِ، مستكينٌ في أحضان سهول "حِمص"، مقسمٌ "حماة" إلى نصفين، ناقلٌ حباتَ التينِ البريّ النهري - التي تَتَعجَّل النضج دومًا فتسقُط في مياهه- إلى بلاد لم تكُن لِتعرفها.

هل كان "العاصي" باردًا في هذا اليوم الشتويّ؛ حين راحوا لِدَفْن الجَدةِ في قريتها، تَرَكَتْهُم في منتصفِ الطريقِ، تقطعُ المسافةَ إلى النهرِ،

الحَصَى يؤلمُ باطِنَ قَدَمَيْها في الحذاءِ الخفيفِ الذي انْتَعَلَتْهُ، سَقَطَتْ مرتين، ثم قامت غارقة في التراب، اللونُ الزهريّ يزيّنُ أشجارَ "الدفْلة" على ضفافِ "العاصي"، صوتُ النواعيرِ يُخبرُها، أنّ كلّ شيء مستمرٌ؛ عدا حكايات الجَدَةِ، لكنّ صوتَ الجدّةِ الناعس حول موْقِدِ الحطبِ في الليالي الباردة؛ ينسَلُّ الآن مع شَجْو النواعير:

"قَمْحَتي أم القموح
قَمْحَتي ما بترُوح
قَمْحَتي بكف طحين
كف الطحين بتقريصة
التقريصة برغيف
والرغيف بجاجة
والجاجة بخروف
والخروف بجمل
والجمل بعروس
ونوس يا سراجي ونوس
والقمحة جابت عروس"

لِحاءُ الأشجارِ مُتشبعٌ بالرطوبةِ، بدأ يتساقط بعد أن كَوَّنَ قشرةً، انْفَصَلَتْ عن الشجرة؛ مقدمة لسُقوط الشجرة بالكامل: [باردٌ يومك يا جَدَتِي؛ كالثلج، كقلوبهم؛ كيف يَجْرُؤون على تَرْكك هُناك، وحدك، في الصَقِيعِ، ويعودون!]

على ضوء الشَمْعَة الوحيدة في المَتْجَر؛ التي أشْعَلَهَا حينما انقطعَ التيارُ الكهربائيّ، أَخْرَجَ صُندوقَ الموسيقى، وَزْنُهُ الثقيل وصناعته المُتقنة مع النقوش الدقيقة على حوافِهِ، والعاجُ الأصيلُ المُصَنَّع منه جَسَد الفتاة الراقصة؛ كلّ ذلك يؤَكّد كَوْنَه عتيقًا، ورُبَّما "صناعةٌ ألمانية"، كما أَخْبَرَتْهُ المرأةُ السورية، أدارَ المفتاح فانْسَابتْ الموسيقـى نقيةً، عميقـةً؛

كأنمَا تأتي من بئرٍ مُخَبَّأٍ فيه أسرار الجمال، يهمس لنفسه:

Where do I start?

سَلَّمَ الصُندوق إلى زوج المرأةِ على آخر ضوء للشمعةِ المتهالكة، رافضًا أيّ مَبْلغ نقديّ؛ فالمكان لا يقوم نشَاطه على إصلاح الأشياءِ، كَمَا أن الصندوق ليس فيه عيبًا، وقد تَمَتَّع بالتحفةِ الفنيةِ التي تَرَكَتْهَا المرأةُ المسكينةُ، كادَ ينصح الزوجَ بعَرْض زوجتَه على طبيبٍ نفسيّ، لكنّ الرجلَ الْتَفَتَ في طريقهِ للخروج، توَقّف.. وأخرجَ الصُندوقَ من علْبَتِه.. أدارَ المفتاحَ.. الْتَفَتَ مدهوشًا إلى صاحب المتجر، كاد أن يقولَ له شيئًا، لكنّه تَرَدَّد، أدار المفتاحِ مَرة، مَرتين، مُلْصِقًا الصُنْدُوقَ بأُذُنِه؛ لكنه لم يسمع شيئًا.

سيمفونية الخريف

مقطوعة موسيقية من تأليف: فريدريك شوبان

سيمفونيةُ الخريف

حينما يُغادره آخر المتدربين، ينفَرِد بالبيانو ومعزوفته المُفضَّلة "سيمفونيةُ الخريف"، يعزفها مَرَة.. مَرتين.. ثلاث مراتٍ متتالية، لا يَفْصِل بينها إلا دقيقة واحدة؛ تُسْنِد أُذُنَها على الجدارِ الفاصلِ بين "معهده" و"الأتيليه" الذي تُمارس فيه عَمَلَهَا بتصميم الأزياء، رائحةُ القهوةِ يسْتقبلها أنفُها الذي أَرْسَلَتْهُ خلف الباب.

هادئًا في مكانه المعتاد؛ يشربُ قهوته مع آخر سيجارة، تُثَبِّت عيْنَيها في الثقبين اللذين صَنَعَهُمَا شغفُها غامضُ المنطقِ بالنافذة، خطواتُه الحذرة نحو الباب؛ تعرفُ عدَدَهَا؛ فتَسْبِقه خُطوتين، حتى إذا وَصَلَ إلى بابهِ، كانت عند بابها في ذات اللحظة؛ فتَلْقَاهُ – مصادفة - ككل يومٍ عند المِصْعَد.

- سيمفونيةُ الخريفِ لـ شوبان.

- أنا أَسْمَيْتُها فرحةُ الخريف.

لم يَدْعُهَا لزيارته، هي أيضًا وَجَدَتْ أنه من غير اللائق دَعْوَتَهُ لمكانٍ يهْتَم بأزياءِ النساء؛ فاكْتَفَتْ بأحاديثِ المصعدِ القصيرةِ، يَحُطّ صوتُه في قلبها كقلب شوبان في كنيسة "الصليبُ المقدسُ"، لا تدري! هل رَغِبَ حقًّا في قداسةِ قلبها؟

مَرة.. مَرتان، يتأخر في عَزْف الثالثة كثيرًا؛ قدماها تتعثران بالـ"مانيكان" العاري، وهي تُسَائِل النافذة عن تفسير، رائحةٌ خفيفةٌ للصَنْدَلَ مختلطةً بالهيلِ وزهر البرتقال، من خَلْفِها؛ إذ الباب الذي نَسِيَتْه مفتوحًا، يعبرُ طُحلبُ السِنديانِ العطريّ؛ تُسَجِّل فرحـةً متوجســةً تاريخَ

اليوم إلى جانبِ جدول المقاسات القياسية المُعلّق على الحائط من خلفها قَبْلَ أن يُغَادِرا إلى مَحلّ البنِ الشهير أسفل العمارة.

من غير أن يسألها، طلبَ لها الشوكولا الساخِنة، وتناول قهْوَتَه - لأولِ مرةٍ - خارج قاعة الموسيقى، كُلَّما اقْتَرَبَ زال غُموضُ المنطِقِ في شغفِها به دُونَ لقاء حقيقيّ، طُفولتُه الشَيِّقة، حديثُه المُقْتَضَبْ عن قصّة الحبِ المُبكرِ التي لم تَكْتَمِل، علاقتُه بالبَرِيَّة وذكرياتُ شبابِه، حديثُه شلالٌ هادر انفَلَتَ أخيرًا من خلف سَدٍ عظيم، دُعَابَاتُه الذكية، كأنه لم يكن هو الجالس قِبَالَة نافذتها كلّ يومٍ كـ"قِناع الموت"، وفاؤه لِزَوْجَتِهِ في حياتِها ولِوِحْدَتِه بعد وفاتها، رعايتُه لأولادِه غالبًا وَحْدَهُ، جميلٌ في صمته، وجميلٌ عند الكلام.

يَسْقُطُ من يدها الفستانُ الأحمر؛ كُلَّما أَلْبَسَتْهُ للمانيكان، تُعِيدُه، يسْقُط، يختفي، يظهر جانب حَامل الملابسِ في نهايةِ الحجرة، تتبعه، يقفز، تَنْقَضّ عَلَيْهِ بين الفساتين المُعلّقة، فتجده مُنْسَدِلًا على جَسَدِها، تنظر في المرآة فلا تُصدِّق تِلك النظرة التي أَطَلَّتْ من عينيها، تنزعُ الفستان وتقذِف به في وجه المرآة، تفزعُ نحو الباب؛ تَلِفُها موسيقى صاخبة وفستان أبيض ذو ذيل طويل؛ رَفَعَتْهُ العاملةُ في مركز التجميل، لَفَّتْهُ حول ذِراعها عدة لفاتٍ: "سَتَحْمِلِينَه وَحْدَكِ في الرقصةِ الهادئةِ"، خرزاتُه الكثيرةُ أَثْقَلَتْه حتى أطْبَقَ على أنفاسِها، وبصعوبةٍ استطاعت أن تَصِلَ إلى سَحّابِه، شَدَّتْهُ لأسفل وأسْقَطَتْهُ، وداست عَلَيْهِ بقدَمَيْها؛ وهي تَلْمِح في المرآة عُرْيِها، تجلسُ على أقربِ كرسيٍّ، ترتدي أول فُستان يقع في يدها، الفستانُ الأسود السواريه؛ الذي جَهَّزَتْهُ لترتديه في أولِ سهرةٍ، رُبَّما يَدْعُوها إليها، لكنه لم يَدْعُها أبدًا للسهرِ أو الرقص، كيف سيُراقصُها وقدماهُ لم تَبْتَلَا بالموسيقى! لم يعْرِف فرحةَ الخريفِ بعد أن تُغَادر الأوراقُ الذابلةُ أشجارها الخشبية تتراقص مع الهواءَ، صامدة لتَصْنَع حياةً في مواسمٍ أخرى.

أغلق نافذتَه، واختفت رائحةُ القهوةِ، حواسُها اليتيمةُ ما عَادت تَعْرِف كيف تُدَبِّر مُصادفات المِصعدِ: [لا بأس يا قلب البندق، تَخْشَى أن تَكْسر قِشرتَك الصلبةَ التي حافَظْتَ عليها عُمْرك كله، وأنا التي كَسَرْت صَدَفَتِي من أجلِك، تعزِف لـ"شوبان" وما تعرِف مِنْهُ إلا قفزات الأصابعِ على المفاتيح]

تتفهم الأسبابَ التي تظُنُّها سببًا في عِزُوفِه؛ والتي تجدها أفضل كثيرًا؛ مما سَاقَهُ إليها من مُبرِرَات، وكأنه داسَ على إصْبع قدمِها؛ تبتسمُ لمنطِقِه المهزوم وتمضي.

ما عادتْ تخْشَى الشبحَ الأسود الذي يُحاولُ مُراقَصَتها كلّ مساءٍ بعد أن تُغادرها العاملات، وتسمعُ تَكَّةَ المِصعدِ يهبط به وحيدًا.

بعد أن اطمَأنَّ أنها لَمْلَمَتْ حلزونتها، وأعادت صَدَفَتَّها المكسورة؛ عادَ يفتح نافذته، تُراوغها رائحةُ البُنِ، وقِناعُ الموتِ القابع أمام البيانو، تُنْصِتُ لـ"سيمفونية الخريف"، مَرة.. مَرتين، يتأخر في عَزْفْ الثالثة كثيرًا؛ يَنْبُت لها قدمانِ، تأخذَانَها نحو النافذةِ، رائحةٌ خفيفةٌ للصَنْدلِ مختلطةً بالهيل وزهر البرتقال وطُحْلُب السِنديانِ العِطريِّ من خلفِها، تعْبُر البابَ الذي أغْلَقَتْهُ جيدًا.

صولو

Quatrans Of Romi

الجُمَل المكتوبة بخط مائل

من رباعيات

"جلال الدين الرومي"

تأويل: محمد عبد إبراهيم

صولو

أربعُ خُطواتٍ إليها؛ يَمدُّ يدَهُ، تَمدُّ يدَها؛ كفُّها تَعلُو كفَّهُ دونَ تَلامُسْ، وتَبدأُ الرقصةَ..

جَسَدُهُ آيةٌ من خَلْق الله، الخوفُ والرجاءُ والألمُ أشياءُ؛ تَرْتَسِمُ عَلَى وجْهِهِ العربيّ، ملامح وطن.

معًا يدوران، في عينيها إشراقةُ إعجابٍ، وفي عينيه خَيَّمَ حِيَادٌ طويل.

مُفْعَمٌ بالموسيقى التي امْتَصَّتْهَا عَضَلاتُه مع التدريبات الشاقّة في أيامهِ الماضية، متطلعٌ لأن يكون في العَرْضِ القادمِ solo dancer، حتى القفـزة الجانبية التي لم يُحِبّـها أبدًا، ويُطْـلِق عليـها في نفسِـه: "رقصةُ الذبيحِ"، أتْقَنَها تمامًا، مُخلِصًا للمِنْحَة التي أُسْتُحْدِثت من أجله: "ارقُصُوا من أجلِ السلام"، كان يرقصُ في شوارع ذبيحة، بين بيوتٍ هَدَّمَتْها قذائفُ الهاونِ، واشمًا على عُنُقِه: الرقصُ أو الموت.

ثلاثُ خُطواتٍ إليها، خُطوَة إليهِ، يَمدُّ يدَهُ، تَمدُّ يدَها، تُلامِسُ أصابعُها أطرافَ أصابعِهِ، وتَبدأُ الرقصة..

يُمكِنُهُ أن يمشي قليلًا مع صديقتِهِ الفرنسيةِ، بعد أن قَدَّمَ رقصتَه أمامَ برج إيفل على أنغامِ البيانو، تُصَاحِبه أغنيتها التي اتَّخَذَتْ من وشمِه عنوانًا لها.

العالمُ ليس جميلًا أبدًا، والصفعةُ التي تَلَقَّاها من أبيه - وهو صغير –

علامـــةُ في قلبِـــهِ، أبـدًا، لا تصعـد إلى عينيه، لكنّهـا تَسْرِي في دمِهِ، لـن يُصبح صفحةً بين دَفتَيّ كتاب لا يقرأه أحد، سيكون صرخةً تَنْفَلِت من حنجرةِ ناي في بريةٍ، شهقةً في سماءٍ ليس لها من خَطيئةٍ؛ إلّا أنّها تَشهدُ في صمتٍ من أولِ الدنيا على أحوالِ البشرِ.

خُطوتانِ إليها، خُطوتانِ إليه، يَمُدُّ يدَهُ، تَمُدُّ يدَهَا، تُشبِكُ كَفَّهَا في كَفِّهِ، تَبدأُ الرقصةَ..

يلتَقِيهَا في طريقِهِ للمعهد، أمستردام الأنيقة اللامعة، تستدعي في ذاكرتِهِ مدينتَهُ؛ التي طَالَهَا الخراب، وأنْهَكَتْها الحربُ سنواتٍ مَرَّتْ، تَلْمِسُ يدُها الرقيقةُ الباردةُ وَشْمَهُ:

- والحب؟

يبتسم في حنانٍ للذِكْرَى، كان يُباغت رفيقتهُ هناك بقفزةٍ في الهواءِ، يتبعها بخطواتٍ واسعةٍ، تَختبئ خلف الأشجارِ، تتطلَّع إليه، وتحْلُم... آخر مرة جَلَسَا معًا؛ تُظللهما أنياب حديدية في بقايا البيوتِ المُتهدمةِ: هذا الصوتُ، هل كان أنينُ الأحجارِ، أم العروسةُ القماشُ بين الركامِ تبكي صاحِبَتِها!

تُصِّر أمه على سفره للمنحةِ، سانَدَتْهُ وإخوتُه كثيرًا، يُرْسِلُ إليهم الآن كلَّ ما يحصُل عليهِ من مالٍ، هل يعود ذات يومٍ للمُخَيَّمِ، وطنه الذي لم يعْرِف غيره؟ العجائزُ يحْكُون عن وطن آخر، يحلُمون بالعودةِ إليه، يُطلِقون الأسماءَ على شوارع المُخَيَّم، لكنّ المخيماتِ لا تسْتجيب؛ إذ لا وطن؛ سوى وجه الله، حين يعود سيُنْشِئ معهدًا لتعليم الباليه، وتمثالًا بالحجم الطبيعي للعالِمِ الأثري خالد الأسعد الذي ذُبِحَ وعلّق على أبواب تدمر الأثريّة، سيضعه في نفس المكان على بابِ المدينةِ الباقيّة أبدًا.

خُطوةً واحدة إليها، تتقدمُ ثلاثَ خطواتٍ، يَمُدّ يَدَهُ، تَقبِضُ على كَفِّهِ، وتبدأُ الرقصة..

يدورُ بها دورة واحدة قَبْلَ أن يبدأ عرضَهُ المُنَفِرد؛ هابِطًا بجسدِهِ قليلًا، يمُدُ ساقَه اليُمنى، وبأطرافِ أصابعِهِ يمسح خشبةَ المسْرح؛ كبندول ساعةٍ تقرأ كل ثانية، ينتصبُ مشدودًا، يداهُ للخلفِ ولأسفل، رافعًا رأسَه، مُصَوبًا عينيه نحو ما لا يرَاه غيره، يقطعُ بيسراه الكرةَ الأرضية؛ فينشطرُ العالمُ إلى نصفين: الأعلى يرقصُ منتشيًا، والأسفل يتعثرُ بقدمَيه، يدورُ؛ يدُه اليسْرَى لأعلى واليمْنَى للأرض، زملاؤه يتبادلون الدهشةَ، ما الذي يفعله العربيّ على أرضِ الباليه المقدسة؟ ***جِلْدًا وَدمًا وعظامًا وعَقلًا ورُوحًا.. لا مكان لنقصِ رجاءٍ أو للرجاءِ.. ليس بهذا الوجودِ إلاكَ،*** إلهُك وطنٌ، يدورُ.. ***واصِلْ تَجْوَالَك رغمَ أنهُ لا مكانَ لكي تَصِل،*** آهٍ؛ يعْلُو، ***ارْحَل إلى باطِنِك، الرقصةُ لن تنتهي حتى لو تَوَقّف عازفُ البيانو، أنينُك أغنيةٌ.. لا تدْخُل إلينا دون أن تَجْلِب الألحانَ،*** يستطيع الآن أن يتخلَّص من جاذبيةِ الأرضِ، يؤدي شَكْلًا استاتيكيًّا في الهواءِ لمدةٍ زمنيةٍ قصيرة، هي المفاجأة التي يحْمِلها لهم اليوم؛ وبقُدراته الانفعالية العالية؛ يجعلُهُم يُصيحونَ في دهشةٍ وإعجاب وغيرة، ويدورُ، ***في داخلِ الماءِ ساقيةٌ تدور، نجمٌ يلُفُ مع القمر***؛ كنواةٍ حولَ ذرةٍ، يدورُ .. يبحثُ عن نورٍ، عن فرحةٍ مع الله، ***ما هذه الأنوار!*** يعْلُو بعيدًا عن جاذبية الأرض كالِكْترُون حولَ ذاته، يا الله، نظرةٌ بعينِ محبتِك لهذا العالم المستكين! يدورُ.. ***ذات يومٍ؛ تُخَلّيني من ذاتي فأستطيع ما لا تستطيعه الملائكة؛ أن هُدْبك سوف ينْظُم فوق خَدّي القصيدَ التي ليْسَت في مقدورِ أحد.***

جاونية

بحيرة البجع

باليه درامي، تأليف

الموسيقار الروسي: تشايكوفسكي 1887م

قام بتصميم الرقصات : ماريوس بيتيبا

جاونية

الكمان ساهم على كَتفِه، يميلُ برأسهِ على صُنوبَرِه المؤَرَّق بأحزان الغابات، قَوْسُه اليوم يُجاوِب الموسيقى الراكضة بين الآلاتِ الموسيقيةِ الصامتة في المتجر؛ متسللةً من الجِرامَافون العتيق، تَسْبَح عند الأرففِ والأُسطواناتِ الفارغةِ التي يملؤونها بموسيقى كلاسيكيةٍ للشغوفين.

حين يكون رائقًا؛ يضعُ الكمانَ على ساقيه، مُسَلِّمًا عينيه الطِفْلِيَتَيْن لقلبِها الذي تَعَلَّمَ الركض إليه، لكنه اليوم مهموم؛ عيناهُ تُطاردان الحيرةَ المُنْفَلِتة من بين أصابعه في موسيقى "بحيرةُ البجعِ"، تَلْمس قِلادتَها الفضيّة؛ التي لا تُغادر صدرها مُذ أهداها إليها: [آه؛ هل تُدْرِك أنني لست سوى أوديت الصغيرة، تنتظرُ يديك]

دَخَلَتْ، يسبقها طفلان، عَرَفَتْها على الفور؛ صورتها في التلفاز لم تبرح ذاكِرَتها، كلماتُها مذبوحة في حنجرةٍ يسْكُنُها البكاءُ، هدوؤها عاصفةٌ خاصمها المطرُ، وجفناها من خلف نَظَّارَتِها الطبية غادرهما الكُحلُ مُذ أدْمَنَتْ الانتظار؛ رَفَضَتْ شهادةَ الوفاةِ؛ التي أرادُوا منْحَها، صكًّا، كما سَلّمُوا الأخريات، اللواتي غاب أزواجهن في مهام عسكريةٍ؛ دفاعًا عن الوطن، لكنّها ترفُض التصْدِيق، وتنتظرُ؛ إمَّا جسدًا ميتًا أو تسجيلًا حيًّا لعملية القتل؛ التي داوم الإرهابيون على فِعلها.

يُحرّك أوتار الكمانِ؛ الذي جاءتْ به الطفلةُ، ويضغط برفقٍ على مفاتيحِه السوداء؛ المنتهيّة عندها الأوتار، يُنصِت لذكريات الصغيرة عن الأب المفقود، تُخبرهُ أن ساحرًا شرّيرًا قد أظلمَ الدنيا، لكِنما عيناها تلمعان؛ وهي تؤكّد أنّ هناك سحرةً طيبين؛ مِثلما أن هناك أشرارًا، وأنّه في الحكاياتِ، ينتصر الطيبون دومًا.

يُشير لأخِيها الواقف جانب الباب؛ مشدودًا كجنديّ في نوبةِ حراسة، لكنّ الوَلَد لا يستجيب، تتشاغل مع الأمُ في انتظار انتهائه من معالجة كمانِ الصغيرة، تتبادلان النَظَرَ؛ كلتاهما إلى قلادةِ الأخرى، تبتسم الأمُ في شَجَنٍ، بينما تختفي الكلماتُ في حنجرةِ الأخرى؛ التي غادَرَهَا الغناءُ؛ حين غادَر أبوها في إحدى المعارك منذ زمن بعيد، ولم يَعُدْ أبدًا، تُهدي للأمِ إحدى الأسطوانات حائرة اللحن على استحياء قبل أن تُغادر مع صغيريها.

فَرَغَ المكان؛ إلّا من عينيّ الصغيرة المُمْتلِئتين إصرارًا، وهي تَمْضِي محتضنة الكمان، وصوتُ خُطوات أخيها المنتظمة؛ وهو يسْبِقهما.

وحيدًا كعربيٍّ؛ الكمانُ عند ساقَيْهِ، عادت الموسيقى تَخْطو بتُؤَدة بعد أن تَوَقَّف الجَرَامَافون بانتهاءِ بكائية "تشايكوفسكي"، يسْحبُ قوسَه مثل قلبٍ مكلومٍ، وهو يشحذ أنفاسه، يضُوعُ عطرٌ بدائيٌّ ممتزجٌ بأنغام حائرة، صورة أُودِيت وحبيبها يغْرقَان معًا في البحيرةِ؛ بعْدَ أن نَزَعَ التاجَ من فوقِ رأسِها؛ تملأ عينيها، تَقْبض بوجلٍ على مفتاح صُول الفِضِي المُعَلَّق بصدرها، تُخايِلها صورة الأمِ وهي تُغادر؛ مُعلقٌ بصدرِها مفتاحَ إيزيس.

كنتاتا فروبدية

كارمينا بورانا

كانتاتا –مغناة– تأليف الموسيقار الألماني: كارل أورف 1937

هي 24 نصًّا من 250 نصًّا

وجدت في دير يرجع تاريخه إلى القرون الوسطى 1803)

كبتانا فرويدية

أطوي الورقةَ التي دَوَّنَ لي فيها العنوان بحروفهِ المرتعشة، بعد أن وَعَدَنِي بالحصول على البطاقة السياحية، أتابعُ تفاصيلَ يومه، مواعيد تنَاوله للأدوية، وقياس ضغط الدم والسكر بصفةٍ منتظمةٍ، وأقرأ له؛ بَدَا مُمْتنًّا حين اكتشف مهارتي في القراءة؛ أَعْتَنَي بأدَائي حين أقرأ علَيهِ الشعرَ، وأُلَوِّن فيه عند قراءتي للقصص، وبنبرةٍ حيادية؛ أقرأُ له كُتُب السياسة والاقتصاد، أرى أنّه وَجَدَنِي الأفضل؛ لذا لن يتَخَلَّى عنّي أبدًا؛ فالجميع مشغولون دائمًا، يدفعون جيّدًا لمن يعتني بأبيهم في مرحلتِهِ العمرية الأخيرة؛ شاكِرين لِلَّتي اطْمَأنَّ إليها أخيرًا.

لَمْ أهتم باعتراض أولادي؛ إذ لَمْ يجتمعوا يومًا منذ زواجهم إلا حين جاءوا؛ ليُعَارضوني على سَفَرِي الذي بَدَا لهم فكرة غريبة ومجنونة، ووجدتها مغامرةً شيّقةً في زمنٍ رتيب؛ السفر لـ"فيينا"! من كان يُصَدِّق أنني أفعلها الآن؟

اقتراحُه لي أن أزُور متحف "فرويد"؛ هو نتِاَج حواراتنا المطوّلة عنه..

- هل كان فرويد يَعْلَم عن "الناقِلات العصبية" في الدماغ؟ وأن قُرصًا يمكن أن يخفي أو يُقَلِّل من بعض الأعراض؛ التي يعاني منها المريضُ النفسيّ دون الحاجة إلى جلساتٍ حواريةٍ طويلة؟

- لا أدري حقًّا عن تاريخ اكتشافها، وأظُنه اسْتخدمَ طُرُقًا عديدة للعلاج قبل أن يَخْلص لأمر الجلسات.

- لكنّه كان يَعْلَم تمامًا أهمية الكيمياء؛ حتّى أنه اخْتَبَرَ الكوكائين على نفسه.

- هذا أَدْعَى للاعتقادِ بنقصِ الأدوية؛ التي احتاجها لِحَلّ المُعضلات العصبية التي وَجَدَها في مرضاه.

لَمْ أستطع حَسْم شعوري تجاه فرويد؛ حين كان يزرعُ الْهَمَّ في حديقتي، كان زوجي يُجني ثمار ما زَرَعَهُ أجدادُه في أرضِ الرجال، من التي قَرَأَتْ أفكارَه ولَمْ يَنْتَبْها إحساس بالذنبِ؛ أن تكون قد تسبَّبْتْ دون قصد بتَصَرُّف ما نحو أطفالها، تَسَببتْ في وجود أي خلل في سُلُوكياتهم أو مُعاناة نفسية لهم، على الرغم من أنها ربّما قد تحُاول تغيير سُلوك ما؛ فتفشل، وكأنَّها صفاتٌ راسخة في دمائهم، ورُبَّما قد وُلِدُوا بها، أحيانًا أشعر بالحنقِ الشديدِ عَلَيْه، وتُرَاودني شفقةً مختلطةً بإعجاب؛ كشخص حقيقيّ أتعامل معه في حياة يومية عادية في أحيان أخرى.

المَباني عتيقة، مُتَلاصقة، وغير مرتفعة؛ تتراص السَيارات أسفل الرصيف على الجانبينِ، العرباتُ تهبط في الشارع المُنحدِر مثل هضبةٍ في تَّجاهي، لكنها تنحرِف يسارًا عند التقاطعِ قبل أن تصل إلى شَارع "بارج"؛ حيث أقِف إلى جانب اليافِطَة الرأسية الحمراء، المكتوب عليها بخطٍ أبيض كبير "freud" أمام المَبْنى رقم"١٩"، البابُ خشبيٌّ، غليظ، يُشَكِّل في أعلاه نِصف دائرة، مُلْتَحِمٌ بجسد المبنى، الذي عاش فيه فرويد ٤٧ عامًا، يَملؤني إحساس بالمغامرة، بدأ في القاهرة لحظة قراءتي إعلان الوظيفة، ويتجدد كلَّما أتيتُ شيئًا جديدًا.

درجٌ رُخَاميّ وحوائط بيضاء، درابزين حديديّ أسود، ونافذة بيضاء في نهاية الدُرجِ المُؤدي إلى الدُور الثاني؛ حيثُ كانت العيادة في الماضي، مُثَبَّت بها أسياخ حديدية سوداء [ما كلّ هذا النقَاء والوضُوح في مكانٍ كان قَاتِمًا بمُرْتاديه؛ الباحِثين عن نفوسهم الضائعة والمُعذبين؛ الذين يتطَهَّرون بالحكي، واللواتي نَهَجْن في الحصولِ على إجابات عند من ظنّ دائمًا أن حَيَاتَهن الجنسية قارةٌ سوداء، وربما لَمْ يَحْصُلن على إجابة].

في الدور الثاني عِند المدخل، على مِشْجَب ثابت قُبَّعة وعَصَا المَشْي ومِشجب فارغ، بَطَّانية عليها زجاجة عِطر فارغة ومفتوحة، أشعرُ أنه سيخْرُج الآن من مكتبهِ؛ ببذلتهِ الأنيقةِ وسِلْسِلته المُعلقة بين جَيْبَيْن صغيرين في صَدِيريته؛ يتفقّد من خِلال نظارته الطبية المستديرة؛ المُتَلَصْصِين على أشيائهِ؛ يُفَتِّشون ما تَبَقَّى منه؛ مِثلما فتَّش أحلام آبائهم.

جالسٌ على كُرْسِيه الخشبيّ؛ المُبَطَّن بقماشٍ أخضر عند رأس الأريكةِ ذاتَ الغِطاء الفارسيّ؛ تتقافزُ الذكرياتُ في رأسي، أرغَب في تَقَيُّئها دفعة واحدة، لا أدري هل كان الجُزء الحانق عليْه بداخِلي هو ما دَعَانِي لِأحكي لهُ عن حُلْم طُفولَتي المُجْهِد، لأُخْبِره أنني قد اسْتطعت تَجَاوزه بمُفْرَدِي: [أنزِل من سُلَّم منزلي، وفي منطقةٍ مُظلمةٍ بالقُرْبِ من نهاية السُلَّم، أطيرُ نحو باب الخروجِ، كَمَنْ يَتَزَحْلَق؛ لِأقْطَع المسَافةَ المُتَبَقِية في سرعةٍ شديدةٍ، أَهبطُ.. أهْبط.. ويهبط قلبي مِعي حَدَّ الموت] ينتَهي الحُلْمُ عادة بأن أبُول عَلَى نفسي، أكتشف ارتبَاط الحُلمِ ببكائي ليلًا قبل النوم، فأُقرِر مرة عدم البكاءِ؛ لِيخْتَفِي الحُلم بنهايته المُخْزِية، وتَسْمَح لي أمي بالنومِ جانب إخوتي؛ إذ الدفء والطمأنينة والغِطاء الثقِيل الذي حُرِمْت منه في الفِراش الصَغير؛ الذي كانت أُمي تُصِرُ أن أنامَ به وحْدِي.

رَبَّتَ عَلَى جَبْهَتِي؛ فرَفَعْتُ رأسي إلى الخلف، رأسُ جوبيتر يُزَيِّن الخاتمَ في إصْبَعِه، صرخةٌ في أعماقي، جيوشٌ تصْعد إلى رأسي، موسِيقى شبحيَّة تمْلؤني رهبة، دقات قلبي تعلو، ورفرفات بجَنْبِي تُخِيفني؛ تُشْعِرني أنه الآن؛ في تِلك اللحظة، شيء ما مُخيف سيحْدُث، يصرُخُون بعقلي، وبنفسي:

"o fortuna, velut huna, statu variabilis"

لا أدري أين اسْتَمَعْت إلى تِلك الموسيقى؛ تَزدادُ، تَعْلو، تعصِف، تنكسِرُ المرآة المعلقة بالنافذة، تسرعُ آنا بجَمْع الزجاجَ المتناثر في

مُنتصف الحجرة، تقف بيدين نازفتين، التماثيلُ المُتَرَاصة خلف الزجاج؛ تتقافز، تنتشرُ سريعًا في الحُجرات، بينما التماثيل المكونة من رأسٍ - فقط - تتفجر قِطعًا صغيرة عَدَا رأس فرويد؛ صامدًا في مكانه، فينوس تضرب المرآة؛ التي تَحْمِلها في يدها، تُحاول نَزْع الخاتمَ من إصبع فرويد، وتجري باتجاه النافذة؛ تُحاول فتْحها، المرأةُ الفرعونيةُ تُسْنِد ثديَّيها المدلَّيين بذراعيها، لكن الذراعين يسْقُطان؛ بعد أن ينفصِلا عن الجسد، وتزحف بإصْرارٍ نحو الباب مثقلةً بثدييها بلا ذراعين.

فجأة، تشْتَعل النار في الكُتُب المرصُوصة، و ماري بونابرت تَنْجَح في إطفائِها بالبطانيةِ، تَنْفَتِح حُجْرة الفوبيا لِتندفع مجموعةٌ من النساءِ، وهن يتجَاذَبْن البطانيةَ من نواحيها كلّها دُون أن تنجَح إحْداهُن في الاستحْواذ عليها، تُحَاول مينا أن تحتفظ بهدوئها؛ وهي تجمع الأوراقَ المُبعثرةَ بفعلِ الفوضى: [آه يا دُورا؛ كلّ هذا الخزي يأكُل وجهَك في الرُكن البعيد - من الحجرة - الذي التَجَأْتِ إليه]، وفرويد مُنشغلٌ بالرَجُل الذي ينقَضّ عليه، وعلى الرغم من أنه لا أَحَدَ يسْتَمِع الآن؛ إلّا أن إليزابيث لَمْ تكُفْ عن الكلام.. بروبير يخرجُ صَافِقًا الباب خلفه.

الآن، فقط تَذَكَّرْتُ أين اسْتَمَعْت إلى تلك الموسيقي المخيفة، كلّ مساء تتسلَّل إليَّ من خِلال الباب الصغير؛ الذي يفْصِل بين حُجْرَتِي وحجرة العجوز الذي أرْعاهُ، لكنها قابعة في ركن بعيد في عقلي، في روحي، هناك.. حيث لا أستطيع أن أصل.

"camper crescis, aut decrecis, vita dete stubitis "

يُحَاولون مُسَاعدتي في النهوض، أتركُ يديّ المعلقتين برِجْل الأريكة العارية، لا وجود للكرسيّ الخشبيّ المُبطّن بالقماشِ الأخضر، ينظُرون إليَّ عن قُرْب، ويمضون في رِحْلتهم بين مُحتويات المتحف: [آه.. هل أُريح عقلي قليـلًا وأقرأ لـ شُرلوك هولمـز. يساعدنـي أحد الزائرين في

إنهاء زيارتي بالمرورِ سَريعًا على حُجرة المكتب، أرى فرويد في المرآةِ المُعلّقة بالنافذة، مُتَّكِئًا على كُرسِيه، مَائلًا للخلفِ، رافعًا إحدى قدَمَيْه على ذراعِ الكرسيّ وفي يده سِيجار، على وجْهِه علاماتُ الإجهادِ الشديد، كأنَّه خَرَج لِلْتوّ من جِدالٍ طويلٍ مع زملائِه، في شِدقيه أثر غريب، وفي يدِه الأُخرى رسالةٌ؛ كان قد أرسَلَهَا منذ زمنٍ بعيد جِدًّا: مَارثا، حينما تعُودِين؛ سَأَكُون قد تَخَلَّصْت من خَجَلِي.

لحن غائب

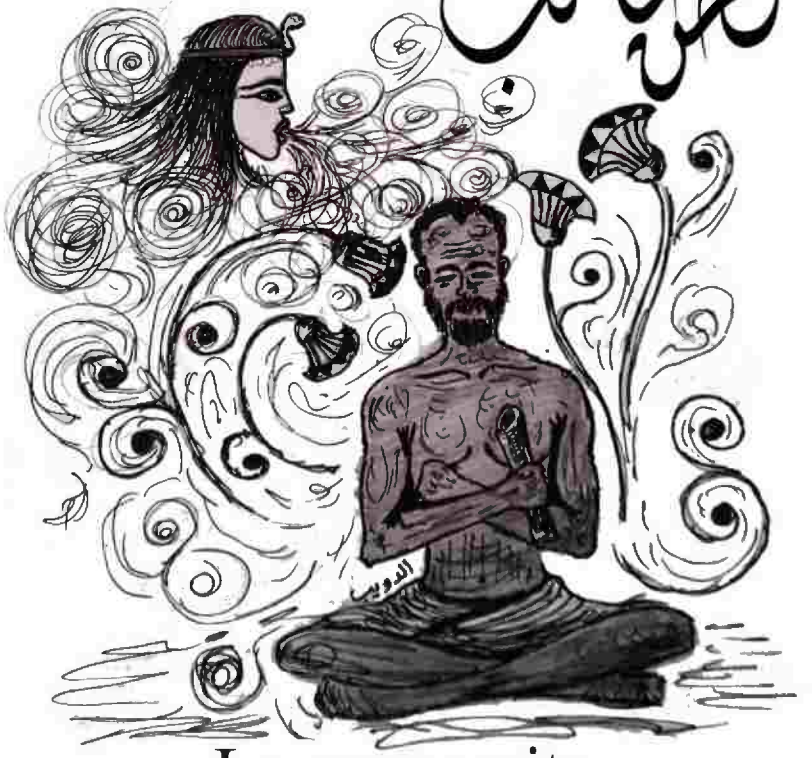

La cupparsita

موسيقا على إيقاع التانجو

تأليف الإسباني: رودريغيز

لحنٌ غائب

رسالة ١

{ إلى صَدِيقي الجميل: لا تنسَ موعدنا عِندَ أتْزُو-عا }.

هَكَذَا ترْجَمَ له صَدِيقه نصَ البَرْدِيَّةِ؛ التي وَجَدَها في دُرج مكتبهِ بالمتحف؛ في أثناء بحثه عن سرّ الرائحة الغامضة؛ التي مَلَأَتْ الحُجْرة، قَفَزَ من نافذة حُجْرته القريبة من الأرض؛ باحِثًا حولَ شُجَيْرَات الفِيكَسْ في الحديقةِ الخلفيةِ لِلْمَبْنَى، لكنه لَمْ يجِد شَيئًا؛ الرائحةُ تتركز في الحُجرة فقط، مَزِيجٌ من الريحان واليَنسون مختلط بعطرٍ، لمْ يستطِع تَحْدِيده، ولم يشُمَه من قَبْل، يجعله في حالةٍ عجيبة؛ لا يُرِيد لها أن تَنتهي أبدًا.

لَمْ يَعُد أحد من زُمَلائه يقْتَرِب من حُجْرته؛ فعلى الرَغْم من جمال الرائحة؛ إلّا أن غُمُوضها أثار في نُفُوسِهم مخاوف مبهمة، خاصةً مع الحالة الآسِرة التي تُسَبِّبها الرائحة الغامضة، حتّى أن رفِيقه في الحُجْرة؛ قد نُقل إلى مكانٍ آخر بناءً على طَلَبِهِ.

خَبَّأ البَرْدِيَّةَ في مَلَابِسِه، وعلى الرغم من أنها لا تحتوي على أية رائحة؛ إلّا أن الرائحةَ تَحَرَكَتْ معه من المكتبِ، تعبُر معه البوابة الخارجية، فتُلاحِقه نظراتُ الريبة غير محددة التهمة.. انْتَقَلَتْ الرائحة إلى البيتِ، لكنّ زُمَلَاءه اسْتَمَرُوا في القطيعة.

صباحٌ جديدٌ غامضُ الرائحةِ؛ يُسْرِع إلى دُرْجِ المكتب، الرائحةُ تعبُر البوابةَ معَهُ، تتقافز الريبةُ في أعْيُنِهم، لا يشْغَله إلا معرفة مُحتوى الرسالةِ، مَأخوذًا بحالةٍ ساحرة لا يَجِد لها تفسيرًا!

رسالة ٢

{ أي صديقي الجميل، حينما نلتقي عند "أترو-عا"، سأجلب معي لأجلك الخبز والنبيذ، أشاركك الصيد، وأضع حليب الغزالة على جرحك الذي في ذراعك، ستمنحنا حاميتي "حتحور" الفرحة والغبطة، اجلس يا رفيقي تحت شجرة الجميز، واكتب لي نشيدًا، ليس عليك سوى أن تتبع تعاليم الحكيم "بتاح-حتب" حتى يصبح قلبي مطمئنًا، واعلم أن الحتحورات السبع ستطوقنا عند الشجرة المقدسة}.

[ماذا لو أن هذا كله حقيقة؟ لو أنني أعْرِف ذلك المكان عند النهرِ العظيم، فألتَقِيهَا، بأي لغةٍ سنتحدث؟ هل ينطَلِق لساني بلُغَتِها، أم نتحدث بلغةٍ يعْرِفُها كلّ البشر على اختلافِ لُغَاتهم وأزمنتهم؟ مِثْلَمَا مَنَحَتْني رائحة سحرية.. أمنَحُها رقصةً سحريةً، La Cumparsita.

التانجو.. هل تعرِف التانجو يا أخي؟ ترتاح بين ذِراعيك وأنتَ تَقود؛ تأخُذها إليك، إلى اليسار، تجْتَاحها بخطواتٍ متلاحقة، تلتفُ الساقُ بالساقِ، لا تَدْري أيَّ ساقٍ هي لكَ، تتبع إيماءاتي؛ تنْزَلِق ساقي أسْفل سَاقها؛ حين تسْحبها للخلف؛ لأعود بها إلى حيث بدأنا، أكْتُب عند كلّ نقطة بجسدِها حكايةً، ستكون سابقةً أولى أن يُراقص رجلٌ امرأة في عالمِ البَرْدِي، لكنني لا أعرِف حقًّا كيف يكون الرقصُ! أنا شاعرٌ، والشعراءُ يا أخي لا يعْرِفُون التانجو؛ إنهم يكْتُبُون فقط، إمَّا أن تكون تَكْتُب أو تَعِيش، وأنا اخترتُ الشعرَ منذ زمنٍ بعيد]

رسالة ٣

{أي صديقي الجميل، يجب أن تمنع سرقة تمثال الكاتب المصري من السجن}.

أن تُنادِيه امرأةٌ بـ"صَديقي" - وتَدْعُوه جميلًا، وتنشُر حولَه رائحةَ السحرِ والغموض - شيئًا؛ لم يتخيله أبدًا، لكن أن تَطْلُب منه أن يُخبِرهم باحتمال سِرقة التمثالِ؛ فلا يُمْكِنه أن يفعل هذا، وكيف يُبَرِر لهم ما يقول! سَيَدُقون على جبهتهِ "مجنونٌ رسمي"، ولن يُصَدِّقوه، وما يدريه أن السِرقةَ سوف تتِم بالفعل؟ المكانُ آمن تمامًا، ثم أنه يشُك في وجود هذه البَرْدِيات أصلًا.. رُبَّما يكون الأمرُ مُجَرَد خيال في عقلِه، أو حُلمًا سيصْحُو منه في أية لحظة، فيجِد التماثيلَ المُرتَّبةَ تتفقَّد العابرين - كالعادةِ - في كَرَمٍ بالغٍ؛ لدرجة أنها لا تفتح فمَها؛ لتُبْدِي رأيها فيما تَرَى!

وكأنَّمَا اختفاء الرائحة قد أخفَاهُ عن عُيون زُملائِه، يَمُرُ عليهم مَحْنِيًّا ظهره، وقد طالت لِحْيَتَه، وتَهَدَّلَت ملابسه؛ التي لَمْ يُبَدِّلها منذ فترة طويلة، لا يَجْرُؤ على النَظَر إلى المكان الخالي فوق قاعدة التمثالِ في المَدخَل منذ حدوث السرقة، يَطَأ الأرضَ بخفةٍ في المَمَر المُؤدِي إلى حُجْرة مكتبِهِ؛ يسبِقه أنفُه، يتشمَّم الحوائط، أسفل المكتب، يقفز داخل الدُرْج.. اختَفَت البردِيات من البيتِ واخْتَفَتْ مَعَهَا الرائحة؛ حتّى هو: لا شيء يدل على وجودِه إلا توقيعه في سِجِل الحضور والانصراف؛ الذي أصْبَح خاليًا منذ فترة ليست قصيرة؛ انْتَبَهَ لها الموظفُ المسؤول؛ فاسْتَدْعَى عاملَ الأمنِ وبعض زملائه؛ فَتَحُوا حجرته، يعمَلُون أنوفهم ولا يجدون شيئًا، لا أثرَ لهُ على الإطلاقِ، عاملُ الأمنِ يُغلِق النافذةَ، الأتربةُ عالقةُ بكلّ شيء، يلاحِظ على الكرسيِّ من خلف المكتب تِمثـالًا صغيـرًا

جدًّا، يَمسَح عنه الغبارَ؛ التمثال لرجلٍ بحجمِ عُقْلَة الإصبعِ؛ محْنِيَّ الظَهرِ وله لِحية، مُمْسِكًا قلمًا وورقة، ألقاهُ العامِل في سَلةِ المهملاتِ قَبْلَ أن يُطْفِئ النور؛ ويَخْرُج.

صولفيج

باليه: طقوس الربيع
عمل سيمفوني
تأليف الموسيقار:
إيجور سترافينسكي 1913)

صولفيج

دو..

دلِّلني؛ أصِيرُ فى دمِكَ امرأةً، أنا في القَسْوةِ أغدو متمردةً، حمقاء، إذا أنتَ دلَّلْتَني؛ أذوبُ حياء، أتبدّلُ حرفًا تبدأ من عنده الحكاياتُ صُعودًا معكَ، ولا تنتهي إلا لِتبدأ من جديد، سَئِمتُ نظراتِ الرجالِ الثقيلةَ، جموحَ أحلامهِم، وإعجابَهم المُتَوَاري خلفَ حِياد المجاملة، رقصتُ - كثيرًا - وَحْدِي، يُصَفِقُون بعيونِهِم المُتَطَلِعة إليَّ من بعيد، أُحَلِّق وحيدة بِمَا يَكْفي لأبحثَ عن رفيقٍ يُشاركني الرقصةَ؛ فلا تُفْلِت تاء التأنيثِ حين تُدلِّلني؛ من أجلِكَ أحْبَبتُ "الكَسْرَةَ" تحت التاءِ، ونسيتُ أن مارتينا نافراتيلوفا كانت لاعبتي المفضلة، وأنكَ جميلٌ، جميلُ بما يَكْفِي لأتَأَنث لك.

ري..

راهَنْتُ عليكَ؛ هلَّا غنَّيتَ لي "شَعَائرُ الربيعِ"؟ فمَن غيرَكَ يُجيد الغناءَ، ومن غيري يشْتَهِي صوتَك الآتي من خلفِ التلال؟

مي..

من أجلِكَ؛ أَتَخَلَّى عن وَحْدَانِيَّتي، أَقْبَل أن أتشَارك بِكَ، ولأولِ مرةٍ بعُمْرِي أقولُ: لبيك، أُعيدُهَا ألفَ مرةٍ، أتَسَلّق حنجرتَك، أَتَزَامَن مع أنفاسِك، صَمْتِك، وأثُورُ في لحْنٍ وحْشِيّ بطُقُوسٍ وثنيةَ الإيقاعِ؛ حين تتفجّر تعاويذ سترافنسكي في البَرِيَّة.

فا..

فَرَّ من صوتِ العَاشقِ حرفُ.

صل..

صوتُك؛ أنبوبُ أُكسجين مُتّصَل بعَقلي وقَلبِي؛ مساحةٌ من الشجَنِ أخْطُو فيها، ومداراتٌ من البهجةِ المُشْتَهاة؛ أنزلِق داخِلَها دونَ حذرٍ؛ طقوسُ الربيعِ في أزمنةٍ فَقَدَتْ ربيعَهَا.

يا تَيْنُورِي؛ كيفَ تُنْشِد لي لحْنَ الوَجَعِ! تُرَى.. حين يحْمِلُونَنِي قُربانًا للربيعِ المَرْجُو، أمْنَحُكَ وجَعًا عبْقريًّا لا ينتهي؟.

لا..

لَا قبْلَك.. ولا بعْدَك.. يا وَجَعِي.

سي..

سَأمْضِي وحيدةً بعْدَ أن غَادَرْتَنِي، هل كان صوتُك في المسافاتِ الفائتةِ؟ أم أنها أوهامُ الربيعِ؛ الذي إن أتى، أكُن قد غَادرتُ في لحْنٍ غِجَريّ بمَدِيّةِ صوتِك؟ كيف استَطَعْت - يا تَيْنُورِي - أن تُفْلِتني هكذا.. وحيدة وتِلك الموسيقى القاسية نعانقُ رقصةَ الموتِ!

لو..

دَلِّلني؛ أنا لكَ وحدَك، أخْلعُ أقنعَتي قُرْبَ النارِ، وقَبْلَ الموتِ الأخير؛ ورديةٌ وبتول، وحشيةٌ وجامحة، حين تبْدَأ الغناءَ؛ أتَفَتّتُ بين يَدَيْكَ، ويَحْلُو ليّ البكاء، وحين تضُمّنِي عند الحَجَرِ المُقَدَّسِ؛ راسمًا بصدْري حرفًا عربيًّا يحتوي نقْطَتينِ من وَجَعِي؛ تَتَطلّع مارتينا بحقدٍ إليَّ، مغمضةً في سلام؛ أنا أيقونةُ الربيعِ المقدسةُ.

حول المؤلف

منال أحمد محمد يوسف

الإسكندرية

شاعرة وقاصَّة

الإصدارات السابقة:

- أوميجا ٣.....ديوان شعر

تحت الطبع:

- شيفون.....قصص قصيرة
- لقطات من شريط ممزق.....قصص قصيرة
- لا تعتقي الماء.....ديوان شعر

E-mail: khaledmansour٦٤١@gmail.com

المحتويات

إهداء ٣
كلاسيكية ٥
فبراير الأزرق ٩
الحركة الأولى ١٥
دويتو ١٩
سيمفونية الخريف ٢٥
صولو ٣١
جاونية ٣٧
كانتاتا فرويدية ٤١
لحنٌ غائب ٤٩
صولفيج ٥٥
حول المؤلف ٥٩

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ١٧٢٣٠